مع معرفتهم هذه وعلمهم يصيرون في هذا اليوم إلى العقاب ويعدل بهم عن طريق
الثواب وقد روي معنى هذا التأويل عن جماعة من المفسرين فروي عن الحسن
في قوله تعالى أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا قال يقول لهم يوم القيمة سمعاء بصراء
لكن الظالمون اليوم في الدنيا ليسوا سمعاء ولا بصراء ولكنهم في ضلال عن الدين وقال
قتادة وابن زيد ذلك والله يوم القيمة سمعوا حيث لم ينفعهم السمع وأبصروا
حيث لم ينفعهم البصر وقال أبو مسلم بن بحر في تأويل هذه الآية كلاما جيدا قال
معنى أسمع بهم وأبصر ما أسمعهم وما أبصرهم وهذا على طريق المبالغة في الوصف يقول
فهم يوم يأتوننا أي يوم القيمة بصراء سمعاء أي عالمون وهم اليوم في دار الدنيا في
ضلال مبين أي جهل واضح قال وهذه الآية تدل على أن قوله تعالى صم بكم عمي
فهم لا يعقلون ليس معناه الآفة في الأذن والعين والجوارح بل هم أنهم لا يسمعون
عن تدبره ولا يتدبرون ما يسمعون ولا يعتبرون بما يرون بل هم عن ذلك غافلون
فقد ترى أنه جعل قوله تعالى لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين مقابلا لقوله أسمع بهم
وأبصر يوم يأتوننا أي ما أسمعهم وأبصرهم فأقام السمع والبصر مقام الهدى إذ جعله
بإزاء الضلال المبين وأما أبو علي محمد بن عبد الوهاب فإنه اختار في تأويل
هذه الآية غير هذا الوجه ونحن نحكي كلامه على وجهه قال وعنى بقوله أسمع بهم
وأبصر أي أسمعهم وبصرهم وبين لهم أنهم إذا أتوا مع الناس إلى موضع الجزاء سيكونون
في ضلال عن الجنة وعن الثواب الذي يناله المؤمنون والظالمون الذين ذكرهم الله
هم هؤلاء الذين توعدهم الله بالعذاب في ذلك اليوم ويجوز أيضا أن يكون عنى
بقوله أسمع بهم وأبصر أي أسمع الناس هؤلاء الأنبياء وأبصرهم بهم ليعرفوهم
ويعرفوا خبرهم ويؤمنوا بهم ويقتدوا بأعمالهم وأراد بقوله لكن الظالمون لكن
من كفر بهم من الظالمين اليوم وهو يعني يوم القيمة في ضلال عن الجنة وعن نيل
الثواب مبين وهذا الموضع من جملة المواضع التي استدركت على أبي علي ونسب
فيها إلى الزلل لأن الكلام وإن كان محتملا لما ذكره بعض الاحتمال من بعد
فإن الأولى والأظهر في معناه ما تقدم ذكره من المبالغة في وصفهم وقوله لكن
الظالمون اليوم في ضلال مبين بعد ما تقدم لا يليق إلا بالمعنى الذي ذكرناه أيضا

إذا حمل اليوم على أن المراد به يوم القيمة على أن أبا علي جعل قوله لكن الظالمون
اليوم في ضلال مبين من صلة قوله أسمعهم وبصرهم وتأوله على أن المعنى به أعلمهم
وبصرهم بأنهم يوم القيمة في ضلال عن الجنة والكلام يشهد بأن ذلك لا يكون من
صلة الأول وأن قوله لكن استئناف لكلام ثان وما يحتاج أبو علي إلى هذا بل لو
قال على ما اختاره من التأويل إنه أراد أسمعهم وأبصرهم يوم يأتوننا أي ذكرهم بأهواله
وأعلمهم بما فيه ثم قال مستأنفا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين لم يحتج إلى ما ذكره
فكان هذا أشبه بالصواب وأما الوجه الثاني الذي ذكره فباطل لأن قوله أسمع
بهم وأبصر إذا تعلق بالأنبياء الذين ذكرهم بقي قوله يوم يأتوننا بلا عامل ومحال
أن يكون ظرف لا عامل له فالأقرب أن يكون على الوجه الأول مفعولا ووجدت
والاول هو
بعض من اعترض على أبي علي يقول رادا عليه لو كان الأمر على ما ذهب إليه أبو علي لوجب
أن يقول أسمعهم وأبصرهم بغير باء وهذا الرد غير صحيح لأن الباء في غير هذا الموضع غير
منكر زيادتها وذلك موجود كثير في القرآن والشعر قال الله تعالى اقرأ باسم ربك الذي
خلق وعينا يشرب بها عباد الله وهزي إليك بجذع النخلة وتلقون إليهم بالمودة
وقول الأعشى ضمنت برزق عيالنا أرماحنا وقال امرؤ القيس هصرت بغصن ذي شماريخ ميال
وأظن أن أبا علي إنما أنس بهذا الجواب أنه وجد تاليا للآية لفظ أمر وهو قوله تعالى
وأنذرهم يوم الحسرة فحمل الأول على الثاني والكلام لا يشتبه معانيه من حيث المجاورة
قال الشريف رضه وجدت جماعة
بل الواجب أن يوضع كل منه حيث يقتضيه معناه ووجدت جماعة من أهل الأدب
يستبعدون أن يرتج على إنسان في خطبة أو كلام قصد له فينبعث منه في تلك
الحال كلام هو أحسن مما قصد إليه وأبلغ مما أرتج عليه دونه ويقولون إن النسيان
لا يكون إلا عن حيرة وضلالة فكيف يجتمع معهما البلاغة المأثورة والبراعة التامة
مع حاجتهما إلى اجتماع الفكر وحضور الذكر وينسبون جميع ما يحكى من كلام مستحسن
ولفظ مستغرب عمن حصر في خطبة أو منطق إلى أنه موضوع مصنوع وليس الذي استبعدوه
ببعيد ولا منكر لأن النسيان قد يخص شيئا دون شيء ويتعلق بجهة دون جهة وهذا أمر
متعارف فلا ينكر أن ينسى الإنسان شيئا قصده وعزم على الكلام فيه ويكون مع
ذلك ذاكرا لغيره متمكنا فيه بأبلغ الكلام وأحسنه بل ربما كان الحصر والذهاب
عن المقصد يحميان القريحة ويوقدان الفكر فيبعثان على أحسن الكلام وأبرعه

Copyright King Saud University